

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 5 (2009) : 13 - 33
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

بناء الخطاب القرآني مقاربة بنيوية سميائية
قصة أصحاب الكهف نموذجا
من الآية 09 إلى الآية 19

عقيلة مصيطفى
قسم اللغى العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة

لقد كان النص القرآني ولا يزال بعيدا عن مجال الدراسة الفعلية لأسباب عدة أهمها أنه نص ديني يستوجب قدرا من القداسة مما يجعل أية محاولة لاستكناه مكانته تتسم بالخوف وتحتاج إلى الكثير من الجرأة، كما أن أغلب المحاولات التي اقتربت من النص القرآني تتسم بالجزئية كالتركيز على إيقاعه أو بلاغته...الخ وهكذا غلب على هذه الدراسات الجزئية والتعميم، وكأنها تصر ألا تقول شيئا عن بناء النص وعموم نسجه، على أن السطحية تظل طابعها المميز لاسيما أننا في عصر يتميز بصراع المناهج التي أعلت من شأن النص وعدته إشكالا معرفيا، فهو بحاجة ماسة إلى المعاينة الحقيقية فالنص القرآني لم يقرأ جيدا إلا نادرا وما يزال ينتظر القارئ الحدديث، فهو نص فعال يتجدد بتجدد الذات القارئة، وكان هذا هو دافعنا الأكبر إلى هذه المقاربة فلما كان هذا النص في تكوينه البنيوي يقوم على تراتيبه واعية تنفي كل اعتباطة، وإن كان هذا يبدو ظاهريا مما جعل الكثيرين يعتقدون تفكك هذا البناء، فكيف يمكن لنص أن يجمع وحدات نصية في الأحكام وأخرى في الميراث، وأخرى في المعاملات فيغض الطرف عن هذه الإختلافات ويوردها في نص واحد بعنوان واحد ومقدمة وخاتمة وسياق خاص عموما؟

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة المتقصية عن إشكال جوهري ما طبيعة العلائق الجوهرية

التي تنتظم هذه النصوص القرآنية التي أكسبها طابع البنى الشمولية المستقلة صوتيا ودلاليا وتركيبا وبنيويا؟ وهذا ما يقتضي منّا إعادة بناء النص النموذج وفق ما يتطلبه التشكل الأولي له أي إعادة التلفظ الكتابي له وفق ما بثّه النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي لنؤكد هذا الترابط الذي تقدمه هذه الهندسة الإلهية في سيرها وبنيتها ودلالتها الكامنة على مستوى الملفوظات –الآيات– التي تؤدي أن يكون الكل نتيجة هذه العلاقات القائمة، وهذا من شأنه أن يحقق قراءة بنائية ولهذا كان عنوان هذه الدراسة "بناء الخطاب القرآني".

إن طبيعة هذه الدراسة التي تتناول بناء النص هي التي حتمت انتخاب المنهج البنيوي السيميائي، حيث كان السميائي منهما وسيلة لبلوغ الأول، فهو نص لا تفترض طبيعته منهجا دون آخر بل يمكن أن يستفيد من كل المناهج، فعمدنا إلى أدوات إجرائية تستند إلى رصيد معرفي ضمن شروط الوصف والتفسير والتأويل، وفي ضوء ذلك كانت استعاننا بالتفسير الكلاسيكي محدودة جدا، فلم نشأ أن نوغل في هذه الإيستمولوجية المكونة سلفا لأنها تمثل أولا مرحلة وعصرا سابقا لا يمكن أن تحقق الإجابات الكافية عما يطرحه لقارئ الحديث لأن بعضها كثيرا ما يتأوّل ما غيّبه النص في بنيته الظاهرة، أو تتم بالسطحية في التحليل، ولما كان التأويل على إطلاقه خطيراً سعينا إلى تجنب متاهات النزعة الذوقية الذاتية، وحتى تكون آراؤنا على درجة قصوى من العلمية كان لابد من اعتماد الدليل من البنية اللغوية ذاتها متكئين على الجانب اللساني النقدي، دون السعي إلى إبراز القيم اللسانية الصميمية، لأن ذلك ليس موضوع هذه الدراسة وقوفا عند إمكانات اللغة التعبيرية وحدودها الصارمة، على اعتبار أن هذه النصوص قد قرأت مسبقا ولكن قراءتها ما انفكت تعاد دون أن تكون دلالتها الكامنة قد تجلت أو أمكنها، وبناء هذه الإشكالية فقد قرضت سورة الكهف نفسها على تذوقنا لاعتبارات عدة أهمها: أن النص القرآني الجُملي لو اقتصر كله على هاته السورة لما حيل بينه وبين أن يكون بها أعظم وأكبر كتاب والأهم هو طبعة هذه السورة التي تتوافق في بنيتها وطبعة المنهج الذي نبتغيه من حيث كونها بنية تامة كباقي النصوص القرآنية الأخرى، ولكنها أيضا تضم في تشكلها الخطابي بنية سردية مهيمنة مما يساعدنا على استجلاء إشكالية هذه الدراسة وهو ما بسمح بالإسترواح أكثر في التحليل، وقد تضمن هذا النص المتوسط – السورة– أربع بين سردية هي على الترتيب: قصة أصحاب الكهف، قصة صاحب الجنتين، قصة موسى والعبد الصالح، قصة ذي القرنين، ولاعتبارات أفضت أن تكون البنية السردية الأولى– قصة أصحاب الكهف – هي البنية المركزية في نص السورة قصرنا الدراسة عليها وإن كان هذا الإجتزاء غير مقبول على الصعيد المنهجي نظرا لتكامل النص

وتضافر سلومه البنيوية.

ستشمل دراستنا نص سورة الكهف على مستوى الآيات (09–19) وبعد تقطيع النص إلى وحداته الدالة على المستوى التشكُّلي نشرع في دراسة حركة تشكله انطلاقا من مطلعها البنيوي.

المطلع البنيوي:

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » فهو يشكل استنكاراً ورداً على ردة الفعل والتفاعل بالاندهاش والتعجب إزاء أحداث قصة " أصحاب الكهف " التاريخية ويؤكده الدال عجباً والتي ظلت مثار جدل إلى أن تشكلت في هذا النص القرآني من هذا النص الجملي، ومن الباث المتمثل في الذات العليا إلى المتقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ثم ساتر من معه، فقد كان هذا المطلع حافزاً لإثارة الموضوع الحقيقي الذي سيق من أجله الخطاب القصي، والذي هو الجدل حول أمور غيبية ورفض هذا الجدل العقيم، إذ مسألة الآيات ليست هي البعد الحقيقي وإنما هذا الفعل وهو الجدل، فكان بذلك اختراقاً أولاً وانحرافاً وتفجيراً أسلوبياً بتنزيل الإستفهام منزلة الإنكار ولكنه لم يفصل في هذا، إذ يبرز مبدأ هاماً من السمات القرآنية وهو التخلي عن الحادثة، فكانت عبارة عن المنطلق وليست الأسا ، وبذلك لم يكن القرآن كتاب وقائع تاريخية، ومن هنا يبدأ السير الدلالي والتركيبي للنص المتشكل انطلاقاً من المقدمة:

توظيف خطاب المقدمة: تحوي هذه المقدمة أنوية مضغوطة، يبدو أنها مجرد إشارات التي ترسم مسار التحولات في القصة، والمقدمة في مطلع هذه القصة موظفة بنائياً وإيقاعياً وهي بمثابة مشروع لهذه القصة وتلخيص مكثف لما أوردته هذه البنية فكانت بذلك دليلاً بنائياً ومفتاحاً للجملة السردية، فهي وإن كررت الفاصلة فهي تنفلت من تكرار إيقاعية الملفوظات فهي ذات وزن حركي، فهي ترسم فعالية الحدث وتحدد النهاية وهي تعد الحاضر السردي ذو الإيحاءات المكثفة التي تشعر المتلقي بالقصد والغاية من القصة وتجلت فيها النهاية والإشارة إلى المقصد الذي ترميه من بعث الفتية والتجادل حول مدة لبثهم في الكهف في أحداث رئيسية: نوم، بعث وإن اعتبرها الكثير أنها تلخيص مجمل لمحتويات القصة ويرسم خطوطها العريضة[1] فهي في حقيقة أمرها أوردت أحداثاً أضمرها السرد وأسقطها، فتبتعد بذلك عن التكرار، والتكرار الأخير لوحدة البعث جاء ليرسم غاية لهذا الخطاب السردي في نصه الظاهر، وبسرعة مدهشة يتجاوز

السارد الخطابية ويدخل نظام الدرامية لينفتح على الآخرين.

م1 « إذ أوى الفتية... وهيء لنا من أمرنا رشداً » يعلن بداية الخطاب السردي بتجاوز فعل الانفصال وتشكل بنية الخطاب الدعائي وانطلاقاً من المعلم " الفتية " والمعادل الرمزي " الكهف "، تتجسد الفاعلية بين الذات العليا التي لا تبدي هنا أية حركة وفاعلية الفتية المتجسدة في الانفصال والأداء الطقسي على النحو التالي:

الفتية / الله

العماد "الدعاء"،القرين الدلالي: طلب الإعانة بالرحمة والرشد

القاصد / المقصود

وهي ثقة في عون مطلق قهار، وقوة مفارقة وذروة في التفويض، وهو يحمل في تناياه إزدواجية الحركة والسكون، ومع تكرار اللاحقة " هم " تعكس أن أمرهم ملحق بالله تعالى ومشيئته، وهي دواخل تصور حالة الإحتواء.

م2 « فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً » وهي تعد إستجابة سريعة وهي تعد استجابة سريعة لطلب الرحمة والرشد وتوحي بها "الفاء" الدالة على السرعة والترتيب حيث تتجلى فعالية الذات العليا من خلال المركب الفعلي «ضربنا» والقرين الدلالي هنا هو "النوم" حسب العلاقة التالية:

الذات العليا / الفتية

العماد " ضربنا "، القرين الدلالي، النوم.

القاصد / المقصود

والملاحظ أن مسافة التوتر منعدمة بين الحدث الغريب وتفسيره، فكان بذلك تفسيراً مسبقاً لحدث النوم الطويل وليس كناية عنه، وإلا قلت درجة مقبولية هذا النص: فحذف المفعول به الذي هو "حجاباً "[2] أو "غشاوة" مما سبب طول النوم فأقنع بذلك المتلقي بطبيعة الأحداث في إطارها العجيبي[3]

ولنحدد هنا مكمن الخرق من ترتيب الصورة ذاتها، فالخرق يقع هنا في الجسد والجثة باعتبارها كائناً يشغل حيزاً في المكان، وبذلك تعطلت الوظيفة السمعية، ففعل النوم يبقى عادياً غير قابل للخرق في الذهن والتصور، بينما يتعرض الفتية للخرق في أصول صورتهم الطبيعية، وذلك بإضافة سمة الغشاوة المحذوفة التي تعني الستر والإخفاء والحجب بما يتناسب وطبيعة الرؤية التي تنميها القصة في تشكلها، فكانت بذلك عنصراً أساسياً في إغناء وتوليد الأحداث الجديدة

تتسم بالخرق والعجيبية "النوم" كحدث رئيسي ممفصل للتشكل السردي، والتحليل بالسمات يكون كالتالي:

ضربنا: [فعل متعدي] + [فاعل – الذات العليا] + [يمار على عضو فيزيولوجي]

على آذانهم: [عنصر فيزيولوجي] + [وظيفة سمعية] + [غشاوة]

وبهذه الصورة نفهم أن الخرق حصل في الفتية على مستوى الأذن ولم يحدث في الفعل وذلك هو مصدر العجب، فالمفعول به متصور في الذهن، غائب في الواقع الطبيعي فتحول بذلك حدث النوم من حدث مألوف إلى حدث غير مألوف، إذ إنتفاء السمع ينتج حتماً استمرارية للنوم وطوله يوحي به التقييد « سنين عدداً » الدال على القيمة الإحصائية المضبطة الأمينة للعون المرسل الوحيد (الله).

م3– « ثم بعثناهم... لما لبثوا أمداً »: تصدرت بحرف العطف "ثم" الدالة على التراخي، وذلك أنه بين الموت والبعث مدة غير يسيرة ولكن تعدادها موكول للذات العليا وغيب يقصر عنه العقل البشري، وجاءت حسب العلاقة التالية:

الذات العليا / الآخر

الله / الفتية ← العماد " بعثناهم "، القرين الدلالي: الإحياء

القاصد / المقصود

إذ نهاية الموت هنا (النوم) بعث وحياة، وغاية هذا البعث الدنيوي حسب هذا التشكل للخطاب السردي معرفة أدق الحزبين إحصاءً لمدة اللبث، تؤكد فعالية الذات العليا في فعل العد والعلم وهي غاية موكولة للام التعليل وغاية للبنية السردية، غير أن الموضوع الحقيقي للخطاب والرؤية التي تنميها القصة شيء آخر يكشف عنه التحليل والذي كان سبباً في تموضعها في هذا النظام التشكلي العام لهذا النص المتوسط، نترك المقدمة لنشتغل على مستوى الخطاب السردي التفصيلي لهذه القصة أي إستعادة خطاب الملفوظ الأول كحالة بنيوية مستقلة قبل أن ترتقي إلى الوظائف والمضامين المتعددة للنص المتوسط.

الحركة I:

و1– م1: « نحن نقصُ عليك. .. ويهيأ لكم من أمركم مرفقاً »: تعد « نحن نقصُ عليك نبأهم بالحق » بنية استهلالية لهذا النص السردي في مستواه التفصيلي، وانطلاقاً منها تبدأ هذه الوحدة البنيوية الأولى بالنمو نحو تشكيل الحدث الأول والمتمثل في الخروج

والانفصال إلى الكهف، إلا أنه محذوف على مستوى الخطاب السردي. وقد تشكلت هذه البنية بعد تشكيل المطلع البنيوي الذي يحدد العلاقة بين الذات العليا والآخر أي الرسول صلى الله عليه وسلم كمتقبل أول ومجادليه، الذين طلبوا منه بيان " قصة أصحاب الكهف " لاستعلام ما فيها من العجب[4] ومع بداية السرد يختفي المقصود – الرسول صلى الله عليه وسلم –ومجادليه ومن سار نهجهم من البشرية – ويحتفظ السياق بالموضوع أي إطلاق الأحكام حول أمور غيبية وتوسيع الجدل، وبعد الوحدة الثانية المتمثلة في المقدمة، يأتي العرض التفصيلي انطلاقاً من الحركة ووحدتها الأولى، فهذه الوحدة على مستوى ملفوظاتها الأولى تشكل امتداداً للمطلع البنيوي وتضادا معه، إذ هي تنفي الظن والحسبان بالحق اليقين فتشكل ثنائية (الظن– الحق) هذا الحق الذي يقاوم الزمن بثبوته مما تدل عليه الجملة الإسمية « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » الدالة على الثبات والاستمرارية والسارد هنا هو الذات العليا ثم بعدها يبدأ الخطاب السردي في تشكله فعلياً.

و1– م2: « وربطنا على قلوبهم...لقد قلنا إذاً شططاً» فهذه الكثافة الإيمانية والتضخم الروحي، فجر حركة أخرى متمثلة في فعل القيام، فهذا الملفوظ الثاني يمثل الحركة التي خرقت السكون، ونقطة التحول الكبرى وبداية التذمر من الواقع، وهي بداية الخرق والتخطي ولحظة الكشف ونقطة الصفر في نمو الحدث وتصاعده وتعكس نمو الوعي وبداية الحركة والانطلاق وتجسد الانفصال المعنوي الفكري، فمن خلال المركب "لن ندعو" ينتفي الشرك، وانتقاء هذا الانتفاء لهو الشطط والانحراف ن وثمة مركب محذوف من قبيل: "فإذا دعونا إلهاً غيره" « لقد قلنا إذاً شططاً» فهذا التغيب والاستبعاد اللغوي يوافق هذا الإستبعاد الدلالي واستحالته وهذا الانقلاب المحدث كان على عدة أصعدة فأسلوبياً ثمة تكريس للوظيفة التعبيرية، وهو نزوع نحو إثبات وتحقيق الذات الإلهية إلى غاية قوله: « إذ قاموا » فينزع نحو الغيبة لحكاية الحال، ومن ثم كان حدث القيام هو حدث طارئ ومفاجئ، لم يعرف التشكيلة المعرفة للحدث من بداية وتوتر ونهاية، وهو الحدث الذي ترتبت عنه سائر الأحداث الأخرى المتراكمة المتلاحقة متدافعة نحو الحدث الأكبر الرئيسي أي النوم الطويل، فكان بذلك حدثاً فرعياً ثانوياً يحوي عدة إشهارات فنية لا يستغنى عنها وهذا الملفوظ يجعلنا مسبقاً أمام إحتمال طرف آخر يأتي ما استبعده الفتية، وورود المخصص أو التميم التحديدي* «السماوات والأرض » في هذا الملفوظ للمحدد "رب" تعكس حقيقة مكانية وزمانية تبرز مفهوم الكون، وبالمقابل فإن هذا الكون رغم لا نهائيته فهو تابع للرب، إذ الأولى "السماوات" رمز العلو والسمو والسيطرة والملأ الأعلى والأرض رمز التدني والضعة والملأ

الأدنى وقد وسع ذلك ملكاً وعلماً، وتدل على التقابل، فاستحق بذلك موقف التوحيد الذي يبرزه هذا الملفوظ، وكان هذا الحدث ذا نهاية مفتوحة مما يبشر بإثارة حدث آخر.

م1– م3: « هؤلاء قومنا اتخذوا... ممن افترى على الله كذباً» فهذا الملفوظ يبلور العلاقة في إطار الثنائية الهو / الآخر، وينطوي تحت الهو: النحن: أي الذات العليا، وهم أي الفتية على إعتبار أن هاته الأخيرة هي إمتداد للأولى ولا تعارض بينهما، في حين الآخر السلبي المتمثل في القوم الوثنيين الذين يبرزون لأول مرة في هذا الملفوظ باللفظ قومنا) يبدو في تعارض معهما وتتبلور العلاقة بين طرفي الثنائية في منظور ثنائية ضدية أخرى هي (الحضور/الغياب) أي (التجلي/الخفاء)، فهذا الملفوظ يعكس ممارسات طقسية غير مبررة مخالفة للفطرة، تعرقل طاقات الخصب والانبعاث الروحي الإيماني لدى الفتية وهي لحظة التيبس التي تحاول أن تقمع الذات.

فهذه الوحدة اللسانية تشكل امتداداً للوحدة السابقة على اعتبار أنهما تشكلان رؤية الفتية وهي في الوقت ذاته حركة مضادة على هذا النحو:

(الآخر (+)، الآخر(–))، (لن ندعو، اتخذوا)، (توحيد، شرك) فنحقق مفهوم الشطط، ولابد لذلك من رأي حصيف وحجة ودليل « بسلطان بين » الذي يرمز إلى القوة والظهور، مهيمن ومسيطر والأصل (لولا يأتون على – عبادتهم– بسلطان بين) فحذف المضاف[5] من علة مستوى النص الظاهر وذلك لإستحالة هذه الحجة وغيابها، وكمحصلة لذلك فهو الإفتراء والكذب والجدل بما لا نعلم وهو العبث واللاجدوى «باتخاذهم أرباباً من دون الله»[6] وإن كان الكذب يحمل دلالة الستر للحقائق وتزييفها لأهواء، فهو يوحي بتلقيهم البث الرسالي الديني الصحيح، فحكموا على أنفسهم بالظلم، وهي بنية تكشف عن صراع فكري بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك والتعدد، وبين التجريد والتجسيد، وبين الإيمان والكفر، فكان هذا الصراع هو المجال المؤطر لهذه البنية السردية، فهذه العلاقة الجدلية المسكونة بالقلق والتوتر هي التي ستفجر الموقف الدرامي (فيما بعد) وردة الفعل فيما بعد.

وبذلك يتحول الصراع إلى صراع نفسي بين الصمت ومساندة الآخر وبين أن

يصلوا الآخر عن طريق المواجهة وهو أمر منتفي إذ لكل فعل رد فعل يساويه في المقدار ويعاكسه في الإتجاه، بينما المؤشر " فتية " توحي بالقلة عدداً وقوة، فتنتفي المعادلة بين القوتين بهذا الشكل:

الآخر (–)

الآخر (+)

←

وبذلك يخفق الآخر(+) (الفتية) في تحقيق ربط بين الذات العليا والآخر (–) (القوم) ولكن الآخر(+) يجيش بتعاطف عميق مع الذات العليا، ويصبح امتداداً لها في الواقع الطبيعي والخارجي، وبذلك تعد هذه البنية بؤرة للتوتر الحاملة إلى التغيير، إذ مكمن الإختراق والشذوذ الإنساني ليس فقط في فعل التعدد إنما هو في الجدل الملتبس بالكذب على الله، ثم إن هذا الإختراق والشذوذ والإنحراف ينسحب على لغته الإنجازية، فمن خلال قراءة لسانية مبسطة لهذا الشكل الخطي المتبث، كإختفاء التعريف في "آلهة " يؤدي دوراً سلبياً في إبراز التنكير كقيمة خلافية سلبية لأنها فعل ليس له شرعية الوجود، كذلك يتجلى هذا الشذوذ والانحراف في تقديم المحدد الهاء في "من دونه" على المرجع "الله"، كذا الالتفات من الصيغة الماضية "اتخذوا" نحو المضارع "يأتون" لاستشراف المستقبل الموسوم بالاستحالة في التدليل.

ويعكس كذلك هذا الامتناع المنطقي حذف جواب لولا لغيابه نهائياً ثم إن التفريغ اللفظي «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً» يتعلق الأمر بأصناف من الأشخاص المحددين من قبل الباث لا يكشف هويتهم فحول بهذا التفجير الأسلوبي الاستفهام استنكاراً، وهذه الوقفة لتعميق دلالة الإختراق والانحراف الذي أخضع له السير التركيبي للنص، فهذا السلوك الذي أحدث المفارقة والصراع أنتج خيارين: إما المواجهة أو الفرار، الذوذ واللاذوذ[7] وعدم التكافؤ هو الذي ولد ردة الفعل بتحويل الصراع من الفكري إلى النفسي الذي أنتج فعل الخروج والانفصال «وإذا اعتزلتموهم... فأووا إلى الكهف» الذي تولد عن بنيةفي منتهى التوتر والإثارة تحمل إشعاراً فنياً بردة الفعل.

و1 – م4: « وإذا اعتزلتموهم... يهيء لكم من أمركم مرفقاً»: وهذا كان نتيجة لوعيهم وإدراكهم، ويعكس تصاعد الحدث، فهذا النفصال والتباين الفكري سيولد حتماً الانفصال المكاني، فالإشارة والتوتر المتمثلة في البنية السابقة، إدت إلى تولد هذه البنية التي تجلي موقفاً دراماياً المتمثل في قرار الانفصال المفجر من تلك العلاقات الجدلية، وهي استجابة لوقف محدد وتصعيد له، تجسدها وضعية هذا الخطاب، ويعكس وعي الذات بالمغايرة والإختلاف والنفور من التوازي والتشابه وطلب البدائل، أدى إلى إقصاء ذواتهم ورفض التشيء والتفاصل الواضح بينهم وبين العالم الخارجي ووسع الهوة بينهم فأفقد التوازن وأزم الذات، أدى إلى خرق هذا النظام المتحجر والبحث عن الاستمرارية والتجدد والتشكل ثانية، باختيار النظام البدائي "الكهف" ومن ثمة فهي تمتاز باللاافعالية والسلبية فإذا كان الآخر(–) رمزاً للإعاقة فإن الآخر (+) لم يدخل في مواجهتهم

وتخلى عن المقاومة واختار اللاذوذ وهو يدخل في باب التأزم لا العجز والوهن، والذي أحدث تخلخلاً على مستوى العالم القصصي، فكانت هذه هي اللحظة الجوهرية في القصة وهي لحظة توحي بالخصوبة والإمتلاء الوجداني بإكتساب الآخر (+) القدرة على الفاعلية، ولكنها فاعلية سلبية لأنها لا تحدث تغييراً على مستوى الآخر (–) ويبدو أن لحظة اللقاء بالرفض والتذمر هي ذاتها لحظة الانفصال والفراق.

بعد أن جسدوا رؤيتهم في الملفوظات البنيوية السابقة كان منطقياً أن تكلل بفعل يمثل الرفض لكل شكل من أشكال التسلط والظلموالطغيان، فكان فعلهم الثوري لا صدامي ولكنه اعتزالي، لم يتعد مستوى الذات بالتحسين، بمعنى غياب البعث والانبعاث الحقيقي المنشوذ والمتمثل في حرية الممارسة المعتقداتية الصحيحة، مما أدى إلى البحث عن عالم خاص طافح بالحركة الروحية والتدفق والنشوة الإيمانية، فكان "الكهف" هو البديل المضاد، وأول ورود لهذا الرمز كان في هذه الوحدة على مستوى هذه الحركة، فكان في الحقيقة تفويضا ولجوء اإلى علم الله والإطمئنان إليه فهو رمز الستر والخفاء والحفظ والرعاية.

والاتصال به اتصال بالذات العليا، والمعادل المثالي الطافح بكيانات نابضة بالجوهري المطلق وأنه رمز الخلاص الإنساني في إطار الغربة الفكرية والحسية، فورود هذا الرمز هنا حرك حركة الانبثاق في سيرورة الخطاب القصصي، وخلخل معالمه، وهو تحول إلى الفطرة والطبيعة قبل كل شيء وخلق للحركة الصاعدة، فهو ينقلنا بعيداً عن حدود النص، ويجعلنا نتأمل نصاً آخر وهو نص خفي أو غائب، فلا ينحصر عند "الكهف" كمعطى حسي باستنطاق دلالته الداخلية، والنصف الثاني من هذه البنية « ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً» فهي تربط هذا الانفصال بالجدوى واللاعبثية، فهذا التصاعد والتسامي الدرامي يوافقه تصاعد وتسامي روحي، «فأووا إلى الكهف» مركب فعلي غير اتجاه النص وأحدث فيه شرخاً، يوحي بالعبور من مسافة الإختيار والخروج للإقتلاع من واقع يميزه الإتضاع والإستلاب والتجسيدية الآثمة.

وجدوى الإختيار يكشفها الشعور التفاؤلي «ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم

من أمركم مرفقاً» توحي بخصوبة اللحظة وتعكس بنية انتظار وترقب ممزوجة بيقين الإنبعاث الحقيقي لهذا الدين المنبعث من يقين الشفرة (يهيء، ينشر) الموحية بتفجير الفسحة والفرج والإتساع، فيتعدل دال "الكهف" من الدلالة على الضيق والظلام إلى الدلالة على الوسع والفرج فهو إعادة إعتبار للفطرة وتجاوز ما بطل من رواسب المجتمع أي توثيق الصلة بالكون

أي بالله، والإطمئنان إلى الآتي المغترب في ضمير الغيب الذي يكشفه لفظ "الكهف"، وبذلك تبدو سيرتهم سيرة قدرية بطابع درامي، تجسدها اللاحقة "كم" الملحقة بالتفريغ اللفظي لهذه البنية «ينشر لكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً» التي تجسدها حسياً إلحاق أمرهم بالله أي الظن بالله الظن الحسن[8] والحوار المنبعث إبتداءً من «إذ قاموا فقالوا... من أمركم مرفقاً» توحي بأصوات تتقابل على مستوى الحوار ولكنها تعود لتتوحد ويصير الأنا أنت، فهو وإن كان ينطلق طبيعياً من ألسنة المتخاطبين غير موضوع ولا مجلوب لكنه موح هنا، فهاته الموقفية تنبعث منها نبرات السردية الموظفة، فهذا الملفوظ على مستوى الوحدة المكللة بالرحمة والتهيئة، الموسومة بالتوكل والإطمئنان لعلم الله الحافظ والحاضن "ينشر، يهيء" فهو يبطن وعداً بالعودة والتشكل والولادة والإنبعاث الحقيقي (الروحي)، فالماضي بالنسبة لهم لم يكن زمناً للفاعلية ولذلك فهم على انتظار الآتي "ينشر، يهيء" أي الفرج الرحماني، الذي يمكن أن يقيم توازناً مع حالة القلق والحزن التي يبعثها التباين الفكري ويكثفها غياب التكافؤ، فهم يواجهون "المدينة" رمز الشرك والتضليل عن طريق الإستنجاد "بالكهف" رمز التوحد والإطمئنان والستر، وهذا الإستنجاد دون شك هو بحث عن الحرية الضائعة في ظل الإعتقاد الأسمى ومنافاة الجدل في ما هو فوق المدارك العقلية، التي غيبتها معطيات الواقع المضاد، فهذه الحركة تريد أن توازن الحاضر يبعثه والماضي قبله يمحوه وذلك ببعث الآتي في حيويته القصوى "ينشر، يهيء"، فهم بذلك يتحركون في زمن إلى الأمام، وحالهم في المدينة لا يبدو متجانساً لأنه يعبر عن القلق والحزن وفي ذات الوقت يعبر عن الإطمئنان والتفاؤل لما تأتي به مشيئة الله، فالنظام الفعلي تتحرك وحداته في إطار ثلاثة حقول: حقل الذات العليا المتحركة في إطار التثبيت والإعانة، وحقل الآخر (+) المتحرك في إطار العجز والقلق والتفويض والإطمئنان إلى علم الله ثم حقل الآخر (–) فهو يتحرك في إطار الإصرار على الشرك والعبثية واللاجدوى.

و تقابل طرفي الصراع يوضحه المركبان التاليان من هذه الوحدة فحقل الآخر (+) هو امتداد لحقل الذات العليا في هذه الوحدة

« لن ندعو من دونه إلهاً» ← نفي الشطط

« اتخذوا من دونه آلهة» ← الإفتراء والكذب، وتحول هذه الوحدة في الملفوظ الرابع لها من الخبر والسرد إلى الإنشاء "فأووا" مثلاً، فهو تحول من التعطيل إلى الحركة، ولنؤكد أن هذه الحركة في فعلها التغيري لا تعد حركة حقيقية لأن فعلها لم يتعد الذات نلحظ أن هذه الوحدة من خلال دليل ألسني توظف الإسم توظيفاً ظاهراً يبلغ 24 اسماً مقابل 15 فعلاً موزعاً على

الحقول الثلاثة.

فهذه البنى الإفرادية* تعكس غياب المواجهة وأي فعل تغييري أو إصلاحي للخرق الحاصل، والسيطرة المطلقة للتمحيض الاسمي** تدل على تغلب الجانب السكوني على الحركي، ولكن رغم ذلك فهذه الأفعال تعكس رغبة في التغيير والتخطي والتجاوز ويلاحظ أيضاً حضور جميع الأطراف في هذه الوحدة، وما يؤكد هذا الحكم أن معظم الأسماء بدائية *** كانت أو نتيجة تمحيض معظمها يلحق بها مخصص أو تميم تحديدي مثل: الحق، نبأهم، ربهم، قلوبهم، السموات، الأرض، الله... الخ، مما يقوي طاقة الحضور كقيمة خلافية لأنها تعكس حضور كل الأطراف.

ففي هذه الوحدة ظلت إمكانات الإنبعاث الحقيقي فيها مستحيلة وصعبة لغياب التكافؤ، فتظل تحوم في دائرة الإمكان إلى أن تصل حدود الإنفجار، فتبدو البنية النصية وكأنها سائرة في تطوير جدلي يعلن عن صراع آسن بين أطراف خفية مجهولة لكنها تفصح عن هويتها عبر صفات توحي بمواصفاتها، ومن ثم يكون الحضور منعكساً في نقيضه، الذي من شأنه تفجير النواة الدلالية، فما الذي سيسفر عنه السطح الدلالي ويختفي داخل عمقه فيما يأتي؟ فمن خلال هذه الوحدة التي خلقت مستويين للحركة يشكلان ثنائية ضدية أساسية، تتجلى في طبيعة العلاقة بين الذات العليا والآخر، فالملفوظ الرابع من هذه الوحدة يعرف تطوراً على عدة مستويات، فيمثل بذلك بؤرة للقصة الذي تلتقي فيه البداية بالنهاية فتبدأخيوط النسيج فيه بالتشكل بوضوح من خلال حضور البعدين:

الرحمة والتهيئة مما يحملنا إلى مستقبلية هذا الخطاب القصصي، ولعل أهم تطور هو الوصول إلى تشكيل الحدث الأول إبتداءً من ردة الفعل في قرار الإنفصال التام، والذي كان نتيجة هذه الوعي الذي كان بداية لإثارة المشاعر المتعارضة، الأمر الذي ترتب عنه التخطيط لردة الفعل المتمثل في قرار الإنفصال، الذي أمدنا بقيمة معلومية تجاوزت مجرد إثارة الحدث اللاحق إلى مستقبل الفكرة والمعطى الدلالي لهذا الخطاب القصصي عن طريق الدوال "رحمة"، "مرفقا" فقد حافظ على خصائص الحدث المكتمل من بداية تولد توترا فيه إثارة إلى نهاية مفتوحة[9] تسمح بتولد حدث جديد.

إن كان فعل الانفصال هذا ورد مضمرا في الخطاب السردي، على أسا أنه يفهم من خلال السير الدلالي للنص المتشكل، فهو موكول للنص الغائب وإلى قراءة التقبل وجماليات التلقي، بإشراك المتقبل في إنتاج النص، وأن لحظة الانفصال هذه عن الآخر (–) هي ذاتها لحظة الإتصال بالذات العليا "فأووا" وإستنجاد بها، فوضعية الخطاب هذه تسمح

بالحديث عن أن متلفظ وعن مرسل إليه متغير ولكنه محدد في الآخر (+) والمركبات الفعلية "ينشر"، "يهيء" تظهر مرسلاً وحيداً أي "رب" ومفاعلا مرسلا إليه ومحدد بدقة هو الآخر (+) المشكلة لبنية الخطاب الدعائي.

وفي ضوء هذا التأويل يكون من الطبيعي الحديث عن امتداد الملفوظ الأول من الوحدة الأولى من الحركة I – في نسيج الملفوظ الرابع من الوحدة ذاتها، فهاجس الإيمان في قوله " آمنوا بربهم " وتجلياته بالرفض والاستنكار والبحث عن الخلاص يمتد بظلاله على السير التركيبي الاستبدالي والدلالي للملفوظ الرابع، ويقيد المطلق بالانتقال من العام " رحمة " إلى الخاص " مرفقاً " ففي هذه الوحدة تنسب الفاعلية كلها للذات العليا وهي فاعلية تثبيت وتمكين والتي كان موضوعها الطرف الآخر(+)

①

نحن	نقص	عليك
نا	زد	هم
نا	ربط	على قلوبهم
ربكم	ينشر	لكم
هو	يهيء	لكم

فأفعالها على مستوى الملفوظ الأول تتجسد معظمها في الزمن الماضي، وفي كون كل ما يشير إلى الآخر (+) (الفتية) ضميرا أو اسما مكنى " فتية " ولكنهم سرعان ما يستمدون فاعليتهم، بعدما تمت فاعلية الذات العليا، وهي فاعلية رفض واستنكار وضجر وثورة على أحكام كاذبة حول ما في ضمير الغيب، تعكسها الأفعال التالية:

يبدو أن كلما يشير إلى الآخر (+) جاء على شكل ضمير أو اسم.

فهناك إذن 6 أفعال للآخر (+) تمثل العدد ②

قام	وا	
قال	وا	
لن ندع	و	
قل	نا	
اعتزل	تمو	مصيطفى
فأو	وا	

الأكبر من وحدات النظام الفعلي المشكلة
للحركة في مقابل الوحدات الفعلية المنسوبة هم
إلى الآخر (–).

③	قوم	اتخذوا	آلهة
	نا	يأت	بسلطان
	و	افترى	كذباً
	من	يعبد	

فالفاعلية المنسوبة إلى الآخر (+) هي فاعلية قرار وحسم رغم كثرة الأفعال المنسوبة للآخر (+) فإنها لم تحدث تغييراً على مستوى الواقع والآخر (–)، ومما يدل أيضاً على عدم المواجهة للآخر (+) والإكتفاء بفعل التغيير القلبي، أن معظم الوحدات الفعلية المنسوبة للآخر (+) أفعال لازمة التي يوضحها المخطط ② فهي أفعال عاطلة لم تتعد حدود الذات بفعل تحسيني معظمها أفعال تلفظ ما عدا "اعتزلتموهم" و"أووا"، لكنها لم تخرج من حيز التلفظ فتعبر عن التوتر وجهد المفاعل للهوة القائمة بين فاعل يعترف ويؤمن بما غيب دون جدل وآخر لا يعترف ويجادل.

فالآخر (–) يبدو حقل نظامه الفعلي يعكس غياب التوتر فتظل الفاعلية هنا للآخر (–) وهذا ما يعكس فعلاً وضعهم في المدينة، فالفاعلية هنا إذاً هي فاعلية شرك وتعدد وتجسيد، وهي مسألة غيبية، فكيف علموا أن قد اتخذ الله شركاء في الحكم، ومن وجهة شمولية نجد أن الفاعل الحقيقي أو العون النحوي هو الذات العليا، وأول فعل منسوب له هو "نقص" في مركب اسمي للدلالة على ثبوت ورسوخ هذه الصفة أي "الحق" لما يقصه

الوحي على مر الزمان.

وأول فعل يسند للآخر (+) هو "آمنوا" في مركب اسمي أيضاً للدلالة على استمرار هذا الفعل في الماضي والثبوت عليه في مستقبلية هذا الخطاب السردي، وهو أول توصيف

ينبغي توفره، كذلك أول ورود للفعل للآخر (–) كان مسنداً في مركب اسمي "اتخذوا" الدال على الخرق والاستبدال، فبداية هذه الأفعال توحي بجو السكون والثبات، إلى "اتخذوا" الذي كان بؤرة للتوتر الذي أدى إلى تزييف الحقيقة بالباطل، وقلب الأوضاع فمعظم هذه الأفعال تكشف عن حركة تغييرية استبدالية، تشملهم وقومهم، وما يعبدون.

فيرتفع سير الدالة من الثبات نحو الحركة السريعة، فتجسد (اتخذوا، افترى) عنف الآخر (–) وطغيانه على الحركة الحقيقية، فبعد هذه الحركة يبدأ الملفوظ الرابع، ويصبح وجود الآخر (+) أعمق حضوراً إلا أن فاعليتها ما تزال سلبية، إذ أنها تتجسد في الجدل ورغبة الاعتزال في خيبة عميقة لتعيش وحدتها وعزلتها، فوجود الآخر (–) يعمق فاعلية الآخر (+) ويطورها من الاستنكار في « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً » إلى الانكار الفيزيائي المتمثل في "اعتزلتموهم، فأووا" والحركة المنسوبة إلى الآخر (+) المتسمة بالانفصال ليست زوالية عدمية وإلا لاكتفوا بقولهم "فأووا إلى الكهف".

فالملاحظ أن الذات العليا تتوازى مع الآخر (+) الذي يمتلك فاعلية من نوع آخر: إيمانية روحية وتتعاكس مع الآخر (–)، فالأولى تتصل بالسماء أي المستوى العلوي: الطبيعي: كهف والثانية: المستوى الأرضي فتظل حبيسته: المدينة، المستوى العلوي // المستوى السفلي أو السماء // الأرض والتي جسدها كتقابلية الملفوظ الثاني « ربنا رب السماوات والأرض».

فحركة الفتية التصاعدية من القيام إلى التوحيد إلى الاستنكار والرفض ثم قرار الانفصال وإذاً اتسمت بذلك فهي تبدو انهيارية في انفعاليتها معاكسة لانفعالية الآخر (–)، إلى أن تنتهي هذه الحركة التصاعدية إلى الاتصال بالله، مثلما ابتدأت في قوله «آمنوا بربهم» فهي تشكل تكراراً لها وإضافة، فهي بهذا الفعل تخرج من حدود النفس في المركب الأول إلى الواقع في المركب الأخير، أما صورة الذات العليا فإلى هنا تبدو محايدة إذ لم تقم بفعل أو حدث تغييري يذكر، رغم ما أثارته بؤرة «هؤلاء قومنا اتخذوا» من شطط واختراق وشذوذ وسط الرؤية الصحيحة.

وأخيراً على مستوى هذه الوحدة من الحركةI بعد أن لاحظنا تشكل حدث الانفصال إلى الكهف كحدث أول الوارد محذوفا مع إبقاء ما يدل عليه «إذ اعتزلتموهم...فأووا» فهو يمثل الحدث الناضج المتزايد المتشكل تدريجياً من بداية وإثارة موسومة بالتوتر، أدت إلى تولد الحدث المفتوح بطلب الرحمة والإرتفاق، فبإنشغالنا على مستوى التلفظ أي فعل إنتاج النص الذي أدى إلى تحصيل النص وتحقيقه في صورته النهائية، فالملاحظ على مستوى هذه

الملفوظات إضافة إلى هذا التتابع في تشكيل الحدث والتوالد من بعضه، أن هذه الملفوظات المسكونة بها في سيرها التركيبي، والتي أنتجت في وضعيات خطاب معينة تبدو متماسكة فيما بينها بروابط العطف لتدل على الترتيب والتعاقب والتسلسل مما أدى إلى إختزال بنية الوحدة الأولى من الحركة I من 4 ملفوظات إلى 3 ملفوظات، فالملفوظ الثاني يضم ملفوظين لأن ثانيهما استرسال مباشر واستكمال اقتضته موقفية فعل القيام في مشهد التخاطب، مما يدل على شدة ترابط هذه الوحدات الصغرى وتوالدها من بعضها البعض وهو أمر تتطلبه البنية السردية غالباً.

حI – و2: «وترى الشمس إذا طلعت... لملئت منهم رعباً» فهكذا انطلاقاً من زمن القهر في الحركة الفرعية I في صورة إصرار القوم على فكرة التعدد الديني والجدل حول مسائل غيبية فكانت بذلك بؤرة للتناقض واللامنطق دون إقامة برهان ساطع، وهنا يتخذ التضاد شكلاً أوسع وتتضح المفارقة، فالقوم يؤمنون بمنطق يطعن في مسألة الغيب أو ما هو موكول لله فيعددون الآلهة، والفتية يرفضون هذا المنطق مما يخلق توتراً على مستوى الذات ويولد الموقف المغاير بدرجة قصوى من الإثارة، فيمارسون فعل الرفض والانفصال والاستنجاد بالكهف، لتحقيق توازن داخلي.

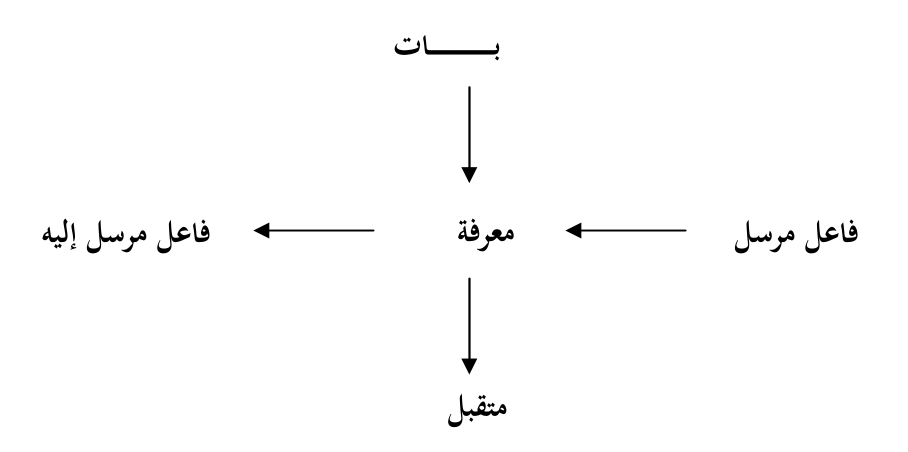
ومن ثم يصبحون أكثر قوة على ممارسة الفعل الديني، فحدث الانفصال هذا وإن كان ينتمي إلى منطق الأحداث فقد ورد محذوفاً، فهذا التغيب في الحقيقة له دلالته، وذلك ليسم القصة بسكونية مطلقة، ويصور حسياً جو الكهف غياب أفعال حقيقية مغيرة ً فهي تؤكد تغلب المركبات الإسمية، ومنافاة للتكرار ورد هذا الحدث في خطاب المقدمة والذي ورد مشفوعاً بالدعاء «إذ أوى الفتية إلى الكهف» هذا الحدث الذي أدت إليه المراحل السابقة والمتمثل في فعل الانفصال والذي لا يمكن أن يحقق التوازن المطلوب، وهو ما تؤكده بنية الخطاب الدعائي في خطاب المقدمة، الذي يحفز على تولد حدث آخر يمثل ردة فعل اتجاه الاضطراب الحاصل، وتختزل بنية الملفوظ الرابع من الوحدة I بنيتين لخطاب دعائي قبل الانفصال ضمنياً وبعده الموضح في حطاب المقدمة.

تأتي الوحدة (2) للدلالة على سرعة الاستجابة، فتأتي هذه البنية والحدث فيها قد شكل منذ مدة، المتمثل في حدث النوم، ويقدم في هذه الوحدة على أنه حدث طارئ غير متوقع يدخل على التدفق السردي مع غياب مراحل تشكله ويؤدي إلى انقلاب الوضع وإحداث توازن يؤكده المركب «وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود» فكان بذلك الحدث المسكن

والحدث الذي تضافرت معظم الحركات الفرعية للحركة I على تشكله، فكان الحدث الرئيسي المفصل للقصة، والذي يحمل بحد ذاته إشعاراً فنياً بتولد حدث آخر ناتج عنه.

وهكذا جسدت الوحدة البنيوية الثانية من الحركة I هذا الحدث الرئيسي وهو حدث مفرد غير مزدوج ومفاجئ وبهذا يعود النص لينتج ذاته من جديد، حيث ينطلق من فعل الرؤية المضارع، وهو خطاب عام لم يقصد به شخصاً محدداً، فهناك مفاعل مرسل وحيد ومفاعل مرسل إليه متغير، وإن كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو المرسل إليه الأول، فقد حذف بذلك مرجع الضمير الذي يصدر عن وعي خاص في تجاوز هذا النسق النحوي ليخرج هذه الوحدة من الخصوصية، وغياب العون النحوي تكريس مسبق لمشهد الغياب، وتكثيف لدلالة الستر والإخفاء وانتقال من التجلي في المدينة إلى الخفاء في الكهف.

فالفعل "ترى" يعكس فاعلاً قليل المعلومات آخذاً بالظاهر، يمثل الانسان في صورته العامة، ولحظة الرؤية هذه هي لحظة تواصل والتقاء فبهذا المجموع المعجمي المتجانس ومقروئية وحداته المكونة كمشمولات وصفية تفتح المجال أمام توسع محمولي وظيفي: شمس، كهف، فتية، كلب، والإشارة إلى الشمس تجعل هذا النظر قابلاً للتصديق على هذا النحو الذي يحقق اتصالاً مكانياً واتصالاً معرفياً.



(شمس، آخر (+)، كهف)

فالآخر (+) يصبح موضوعاً للوصف، فالرائي هنا ذات واصلة *، فتوجيه الأنظار خطوة أولية تسبق عملية الإقناع وتخدم منهجية الإبصار لتحضير العقول والنفو للتلقي والانفعال وهو دفع لإعمال الفكر في دائرة الغيبيات ونقله لينظر مبادئ لها، إلى أجواء

يتملاها الخيال، والشمس هنا رمز الاختراق والإفراز الإشعاعي والضوء فهي رمز الكشف والوضوح .

فالملفوظ الأول المتموضع على مستوى الوحدة II من الحركة I يمثل تجليا خارج الكهف وهو المقطع الوحيد على مستوى الخطاب السردي ونسيج القصة الذي يبدأ بمركب فعلي عونه غير الذات العليا، فالصورة تتسم بالشعاع والبصرية المجسدة لاستحالة الرؤية غير البصرية، فإيقاع هذا الملفوظ هو إيقاع تحول وولادة غير نهائية، فالشمس تولد كل يوم من جديد، مشكلة دورة تحول وتجدد فهي حركة كونية، فهذا المناخ المتميز بـحركته التحولية تبدو من خلاله في هذا الملفوظ لا متناهية من خلال الفعل المضارع "تزاور تقرضهم" فحركة الشروق والغروب باعتباره فعل زوال لكنه زوال يبشر بالعودة ما دام كل غروب إلى شروق، هي حركة وجود لتشكل جديد ينبثق من قديم.

حركة الشمس هنا موسومة بالاختراق للمألوف والانحراف عن طبيعتها، فهي تحول دون وصول النور إلى الكهف انطلاقا من دلالة الفعلين " تزاوره تقرضهم "اللذين يجسدان حركة الابتعاد والانفصال واللاحتواء فثمة تحكم في إفرازها الإشعاعي ومن ثم فهي توحي بسوداوية معتمة، وبذلك فهي تعمق طاقة الخفاء والستر في الكهف، وتتحول بذلك من دلالتها على الكشف والوضوح إلى الدلالة على الستر والإخفاء كالتالي:

تحليل بالسمات:

الشمس: [فاعل مجاز مرسل] + [فعل: طلعت] ⟵ كشف وتجلي

[فاعل: مجاز مرسل] + [فعل: غربت تزاور، تقرضهم] ⟵ ستر وإخفاء

والكهف والفتية والمستقبل لهذا الفعل، فهي في علاقة احتواء وتلاحم مع الكهف وفي قطيعة مع الفتية الذي تعمقه دلالة الفعلين، الأول الذي يعني الميل[10] واللفظة ذاتها توحي بدلالة الإخفاء انطلاقاً من الإدغام حيث أصلها تتزاور، والفعل الثاني "تقرضهم" الذي يعني القطع والانفصال التام[11] فتعطلت بذلك نسبياً وظيفتها الحقيقية، فكان بذلك خرقاً وعدولاً يتناسب وطبيعة الرؤية التي تنميها القصة، وعن طريق التحليل السابق نفهم أن الخرق حاصل في وضعية الكهف ذاته لا في فعل الشمس، وبالتالي فهو مستعص غير قابل للكشف النهائي، طبيعته بحد ذاتها أقوى من أن تكشفها الشمس، إضافة إلى ذلك فالكهف كمعطى حسي هو عنصر ترابي والشمس عنصر ضوئي، ومن ثم فالضوء رمز التجلي والكشف، والتراب رمز الخفاء

والستر، ولا يمكن للضوء أن يخترق التراب إلا نسبياً وهما عنصران يتعاليان فوق الزمن.

ومن تم فهناك تجلي نسبي بما يعادل الظاهر ولكنه يظل في منأى عن الباطن، ولا يكشف حقيقة ما بداخله وبذلك يتحقق المعطى الدلالي الشامل لرمز الكهف فهو الغيب والستر والغموض، فهذه التهيئة هي التي تطوع الأجواء لاستقبال الحدث الرئيسي الذي لم يصرح به بعد في هذا الملفوظ الأول، ويبدو الآخر (+) في عمق هذا الكهف «في فجوة منه» فإشعاعات الكشف لا تصلهم، فهو يتموقع في موضع خفي وهو تجسيد للإلتحام العميق الذي ينشأ بين الكهف والآخر(+) في نسق جديد من الإستجابة، يطغى فيه الهدوء والسكونية الذي يجليه المركب الاسمي «وهم في فجوة منه».

فإذا كان الكهف رمز الخفاء والغموض وعدم التجلي النهائي ومفارقة الظاهر للباطن ورمز الغياب، فتموضع الآخر (+) بهذا الشكل هو رمز التخفي في عمق هذا الكهف الحاضن رمز الخلاص، فهم في الحقيقة في متسع وفرج واطمئنان في أعماق هذا الستر انطلاقاً من لفظ "فجوة" وبذلك تكون امتداداً للملفوظ الرابع من الوحدة الأولى السابقة وتنويعاً عنه فهي تعمق مفهوم "رحمة"، وهم بهذا في غياب حقيقي، ويطلعنا السياق لأول مرة بوجودهم في الكهف، فهناك علاقة تداخل صميمي بين الإنسان والطبيعة.

وانطلاقا من الملفوظ الأول على مستوى الوحدة I الذي يشكل بنية مركزية وبؤرة تبدأ البنية السردية في التنامي وتعمل آليات الإنتاج على تطويرها دلالياً وتركيبياً وصوتياً، لتحقق عملية تجميع دلالي، وتنكشف السيرورة وينفصل مستوى الخطاب عن مستوى البنية السردية، باغتنام الفرصة المناسبة لبث الموعظة والإرشاد في شكل تعليق وتعقيب على ما سبق ذكره، ويرتبط هذا المركب « ذلك من آيات الله» عن طريق الإرتباطات الركنية* بالحركة السابقة للشمس، لتنفي اعتباطية ذكرها، وتكشف عن سر هذا التوالد في تكثيفها لرؤية القصة.

ويعد هذا الملفوظ امتداداً للمطلع البنيوي وحسماً له، إذ ينفي أن تكون آية النوم الطويل هي أعجب آيات الله: من خلال آية الشمس، التي تحيل على القدرة من باب تسمية السبب وإرادة المسبب، بمعنى أنها تأخذ صيغة الفاعلية أو الإيجابية أو التأثير بقدرة الله، وهكذا يمكن أن تسير بالتسلسل الدلالي من الجزء إلى الكل ومن السبب إلى المسبب، فهذه الوحدة هي تجميع دلالي لكل ما سبق .

إذ النظر والرؤية المقصودة هنا هي التأمل في الكون لإدراك آيات الله ومن ثم وجوده وعظمته، "والنظر هو المنهج الذي وصل العباد لمعرفة رب العباد ثم إدراك حقيقة عظمته ووجوده"[12] ومن ثم فليست آيات الله هي هذه الأحداث والقصص التي تناولها التاريخ فقط، فمنها الكثير الموجود في هذا الكون، وهي غيب إلى أن تكشف، ومن ثم فهذا الملفوظ يشكل تكراراً للمطلع وتضاداً معه وتنويعاً وحسماً له، فهو يعد مفصلاً في هذه الوحدة، كما أن المركب «ذلك من آيات الله» يمثل التجسيد الأسمى للعزلة والتحجر على صعيد البنية اللغوية، فيبدو منفصلاً عما سبق وانغلاقه على نفسه وانعدام الروابط بينه وبين غيره انعداما مطلقاً إذ يخلو من أية رابطة عطف.

فتقف هذه البنية معزولة في شكلها النهائي التي تقف نقيضاً للقصة في تصاعدها المستمر لتؤكد أن الله وحده العالم بما في غيب السموات والأرض وأن الإنسان محكوم بالظاهر وما في حدود الحوا كالنظر، فليس عليه أن يجادل ويتطاول بما لا يعلم، وهذا المركب له وظيفة توكيدية تعليقية على هذا الحدث المكرور، ثم ينتقل السياق إلى صياغة أكثر حكمة من الخطاب إلى الغيبة، في شكل المركب التالي، الذي يشكل امتداداً للمركز II الذي يجسده مطلع القصة خاصة، وينمي في الوقت ذاته مستوى الخطاب وهو لملابسة البنية الحكمية « من يهد الله ...مرشداً» فهو الآخر يشكل بنية مغلقة .

يدل هذا على انحصار هذا الأمر على من سلك سبيله، مشكلاً ثنائية ضدية، (من يهد... من يضلل) وهي بنية لا تشكل حضوراً مجانياً بل علاقة تفاعل وتعزية لكل ما سبق كاشفة الخطوط والعلاقات الخفية، فالطرف الأول من الثنائية على امتداد بالملفوظ الرابع من الوحدة (1) أو الملفوظ الأول في الفاصلة "هدى" في معرض طلب هداية الله مباشرة أو تلمسها من عجائب كونه، وبذلك بهذا التوالد النصي تكون امتداداً لمركبات هذه الوحدة (1) أما طرفها الثاني فهو امتداد وحسم للملفوظ الثالث من الوحدة (1) المتمثل في موقف التكذيب والجدل بالباطل.

الخاتمة:

وفي الختام وبناء على ما سبق نصل إلى تحديد السلوك العلائقي لهذه الملفوظات التي بدت ذات طبيعة تسلسلية تكاملية، وهو استنتاج متأتٍ من دراسة أصناف العلاقات الموجودة

بين البنى التركيبية الكبرى لهذه البنية السردية، فأبدت هذه البنية بذلك نمطا مهيمنا من العلاقات على مستوى النص المتوسط ككل (سورة الكهف) ويعزز هذا الحكم بداية الترابط الظاهري بين معظم الملفوظات القصيرة جدا فمن بين 19 ملفوظا – آية – ورد مشدوداً بحرف عطف سواء كانت "الواو" أم "ثم" مما ساهم في تجسيد عضوية النص ووحدته، وهو ما حقق في النهاية وحدة بنائية وبِنية ملتحمة يغيب فيها التفكك البنائي، فلا يمكن معه تقديم أو تأخير ملفوظ على آخر، ومن ثم يصبح الملفوظ دالا ضمن بناء النص ككل.

لما كانت هذه البنية السردية في سورة الكهف تلتزم بالتسلسل المنتظم الذي يتبع مجرى الفكرة يصبح الملفوظ–آية– بذلك وحدة صوتية وخطية ونحوية مستقلة، ولكنها غير مستقلة معنويا، فالملفوظ بذلك هو الركن البنائي الأول والوحدة الأدائية التي يتأسس النص وفقها إجباريا أي النص/ آية، فإن كانت بذلك هي معيار النص وأساسه، فإن النص يصبح هو الأسا على مستوى القراءة، إذ ليس لها شكل ثابت مسبق وبنية نمطية مكررة بل لكل ملفوظ شكل بنائي جديد، دائم التحول يطول ويقصر على حسب السياق الوارد فيه، وهذا بالأسا يعود إلى بنية الكتابة، ذلك أن النص القرآني قد حطم بهذا سلطة الثنائية الجمالية (شعر، نثر) عن طريق ممارسة فعل الكتابة، مما أخرجه إلى شكل جديد من النظم هو القرآن.

ملحق اصطلاحي:

الملفوظ: الآية

النص المتوسط: السورة القرآنية

النص الجملي: القرآن كمدونة كلية

و: وحدة

م: الملفوظ (الآية)

* المخصص أو التنميم التحديدي : أدوات التعريف مثل : ال، الإضافة ....الخ .

* البنى الإفرادية : المفردات سواء كانت أسماء أو أفعالاً .

** التمحيض الإسمي : المشتقات، اسم فاعل، اسم مفعول ....الخ .

*** أسماء بدائية : غير مشتقة

* ذات واصلة: وسيطية تؤدي وظيفة معينة .

* الارتباطات الركنية: العلاقات التي تنشأ بين الكلمات المختلفة.

الهوامش

[1] ينظر سيد قطب في ظلال القرآن، نشر دار الشروق ، ط10 1983، ص 16.

[2] الزمخشري، الكشاف، نشر آفات نهران، مطبعة مصطفى الثاني الحلبي وأولده، مصر1984ص 473.

[3] ينظر العبا عبد الحي، مبادئ لمقارنة النص العجيبي، مجلة الوصل، ص 118.

[4] ينظر مُحَّد طاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير م ، ص 259.

[5] ينظر الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ص474.

[6] مُحَّد الطاهر بن عاشور: في رحاب القرآن (تفسير سورة الكهف)، ص40.

[7] ينظر سامي سويدان، ف "دلالية القصص وشعرية السرد"، دار الأدب بيروت ، ط1 ، 1991، ص 96.

[8] ينظر إبراهيم بن عمر بيوض، في رحاب القرآن ، تفسير سورة الكهف، ص102.

[9] ينظر خالد أحمد أبو جندي: الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها(نظرية بناء القصة الفنية في القرآن الكريم)، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة (ب ط)، (ب ت)، ص148.

10 ينظر مُحَّد الطاهر بن عاشور "تفسير التحرير والتنوير" (مصدر سابق)، ص278.

11 ينظر الزمخشري، الكشاف (مصدر سابق)، ص 476.

12 ينظر رضوان محمود حسن النجار "منهج حاسة النظر في القرآن الكريم"، مجلة الوصل، ص 33